

## مشكلة المعرفة بين ارسطو والنزالي

ارسطو والنزالي<sup>١</sup>

علم الاب فريد جبر النمازي

دكتور في الآداب

هناك امر قد يراه جمهور الناس من الحشو والقصور ، ولكن الفيلسوف يقف عنده ويتدبر فيه كآله من الاهمية بالمكان المالي . وهو اني ارى هذه البناية او تلك فاعرف شكلها وسمتها ، واطالع كتب الهندسة والنطق فأنهبها واعرفها بعد ان يكون ذهني قد ضبطها . ثم انني اعرف ان الحكمة خير من الفنى وان الفنى بالقناعة بعد ان اكون قد اخترت ذلك وحكمت فيه تقلي . ومعرفتي هذه حسية اذا تمت عن سبيل الحس فقط كان ارى جداراً او اسمع صوتاً يدوي وهي معرفة يشاركني فيها الحيوان . وهناك معرفة اخرى وراها وهي ان اعرف مثلاً ماهية الانسان او ان لا بدني من ان اتجنب الشر واعمل الخير او ان بطرس كائن مركب من نفس وجسد . وهذه هي المعرفة العقلية التي بها يتغير الانسان عن الحيوان فيكون حياً ناطقاً ذي صاحب منطق ينظف بعقله الى يواطن الامور فيبدي حكمه على تقوانين الجوهريّة التي تتستر وراء الظواهر .

والحقيقة حينئذ هي ان يكون . في مكروي مطبقاً لتوقع الخارج المستقر عني . فاذا قلت هذا بطرس او هذا جدار ابيض او ان الاثنين والاثنين اربعة ، فالحقيقة في كل ذلك هي ان يكون ذلك الشخص الذي اعنيه بطرس حقاً وان يكون ذلك الجدار الذي اشير اليه ابيض بالفعل والواقع وليس اسود ، وان يكون اخيراً الاثنين والاثنان اربعة حقاً وليس خمسة .

(١) نشر هذا المقال كقدمة لخمسة دروس عن مشكلة المعرفة بين ارسطو والنزالي فانها المؤلف في سبيل الآداب الشرقية . تتحف بما قرأه الشرق لما فيها من دقة تحليل وصراب راي .

واعود فاقول ان الكلام هذا كله قد ، لا يرى فيه جمهور الناس كبير طائل . واما الفيلسوف ، ذاك الرجل الثقيل الظل الذي يقف عندما يراه الغير من توافه الامور فيصرف اليه اهتماماً بالغاً في ظننا ، الفيلسوف اقول يتربص امام تلك المعرفة التي وصفنا ويرى فيها مشكلة لا بل مشكلة عنيفة وبعدها النقطة المركزية لاجتاه في شتى المواضيع .

ذلك ان العقل بطبيعته البدائية ينشط لصله من دون ان يتردد وينتقد نفسه . فهو لا يميز اول الامر بينه وبين ما يدركه . الا ان الانسان يخطأ وما من الامر بد ، والخطأ اذا بدا يثير الحذر والقلق في النفس ، ويزداد ذلك الحذر امام الازاء المتضاربة . فان الفكر الذي كان متسلطاً الى دافعه الطبيعي ، متجهاً برمته نحو المعلومات الخارجة المستقلة عنه ، ان هذا الفكر اقول يتحول حينئذ فيعود الى نفسه ليرى ما هو نصيب علمه من الحق . والعود الى النفس هذا هو اول خطورة نحو انشكابه : فالانسان اما يجارزها واما يستمر عليها . وهنا بالضبط تلقى مشكلة المعرفة : اهل من سبيل الى اليقين ؟ ايجت لنا ان ندعيه من امكانياتنا ؟ او يمكننا حقاً الحصول عليه ؟ كل مذهب فلسفي جواب مباشر او غير مباشر على هذا السؤال . فاليقينيون ، بوجوه مختلفة ، يقولون بتوافق الفكر مع الواقع المدرك ، وهم يميزون طرفين في الامر : الالانا والالانا العالم والعقل ، وهما طرفان يجمع بينهما الفكر . واللاادريين يذهبون الى ان المعرفة مستحيلة ، اذ يفتقرون عند المخالفة التي يرونها بين العقل العالم والشيء . المعارف الذي يحاول ادراكه ولا يستطيع ، او يجزؤون ذلك العقل بينه وبين نفسه فيعرضون عليه منقضاته تصد ان يخدموا نشاطه . وهناك موقف ثالث وآخر سجله لنا تاريخ الفلسفة في العصور الحديثة ، وهو ان بوضيم ، واعني بيهيم المثاليين ، ينسوا من المعرفة والعلم فاعترفوا زعم بشيء . مدرك قائم امام العقل ولكن ليس بينه وبين العقل امر يقارب فيما بينها ، او على الاقل ان العقل لا يستطيع ان ينفذ الى حسيه . فذهبوا الى ان الشيء . المدرك من اصل المدرك نفسه وان المعقول الموجود في العقل هو العقل لا غيره ، وهو كل ما نسميه الواقع الذي هو غرض العلم . فرفعوا بذلك حاجزاً بين ذلك العقل العالم والمعلوم المفروض عليه ادراكه في حد ذاته .

وبين هذه الآراء المتطرفة حلول تقع بين بين ، بطلنا درسها على ما يبذلها العقل البشري من جهود ليقى نفسه الهلاك والتلاشي في اللادارية مع الاعتراف اللهم بالتقدر اللائق منها .

\* \* \*

ومن هذا القبيل ، لا شك في ان المحاولة التي تظهر اقرب من غيرها الى العقل واشدها استفاغة اليه ، هي محاولة ارسطو .

ولد الرجل في سنة ٣٨٤ ق. م. في بلدة ستاجير ، في شبه بلدة كلييس ، من اب طيب كان يعالج فنه في بلاط أميناس الثاني ملك مقدونيا . فآثرت بيئته في توجيهه واصطبغ عقله بميل قوي نحو العلوم الطبيعية الوضعية واساليبها . الا ان اياه مات (٣٧٦ ق. م.) وهو لا يزال في السنة السابعة عشرة من عمره ، فقصده اثينا ليسمع عن افلاطون وبقي مدة عشرين سنة مع استاذه الذي كان يقدر عنده الاجتهاد وحدة الذهن ويسيه « القاري » و« الفكر الحالص » . اما ارسطو فكان يشر نحو افلاطون بجانب قوي من الاحترام يخالطه شي . من الاستقلال والاحتفاظ بالذات من حيث تفكيره . ويقال انه كان يردد : « نعم صاحب افلاطون ، ولكن الحق فوقيه » .

في سنة ٣٧٤ ق. م. بعد موت استاذه ، تزام يضي الى اسوس في ميديا من اعمال اسيا الصغرى ، قاصداً صاحب المنطقة هرمياس وهو صديقه . ثم في سنة ٣٤٥ ، بعد مقتل هرمياس عن يد الفرس ، فر ارسطو هارباً الى ميثيلان عاصمة اللبوس وهناك تزوج من بيتياس بنت اخت هرمياس التي كتبت قد تبعته في هربه . اما نيقوماقوس ، ذلك الولد الذي وقف له ارسطو كتابه في الاخلاقيات ، فهو له من امرأة ثالية ، تزوج منها فيما بعد .

وفي سنة ٣٤٢ دعاة فيليس ابن اميناس الى بلاطه وولاه تربية وتعليم ولده اسكندر المعروف في التاريخ بالاسكندر ذي القرنين ، وكان هذا اذ ذاك في الثانية عشرة من عمره . ولا ندري الى اي حد اثر ارسطو على توجيهه تلميذه ، الا اننا نعرف انه بقي استاذه مدة سنتين ، ثم استمر الى جانبه مدة عشر سنوات وبخيراً سخط ارسطو على الاسكندر من وراء سوء تصرفاته نحو الحضارة اليونانية وقطع العلاقات معه .

رجع ارسطو الى اثينا سنة ٣٣٦ واسس فيها مدرسة جديدة غير مدرسة افلاطون . وهناك ، مدة ثلاثة عشرة سنة ، تأتى له ان يلقي تعليماً واسعاً في الفلسفة والعلوم . وكان ذلك التعليم على وجبين : وجه اول وهو تعليم للاخواس المتعلمين على اسرار العلم والفلسفة والمروضين على مشاقها ، ووجه ثانٍ وهو تعليم لجمهور المستعيرين الذين لا يتجاوز حرصهم على الثقافة الامام من كل شي . بناحية . وفي تلك الاثناء الف ارسطو اغلب كتبه ولم يصل اليها منها الا ما يختص بالوجه الاول .

بعد موت الاسكندر ، اصبح ارسطو عرضة لغضب قومي اثينا الذين كانوا يرون فيه عاملاً للاستعمار المقدوني . فاتهم بجريرة الاحاد وغادر اثينا قاصداً ، فيما كان يقول ، ان بقي الاثنيين جريمة ثالثة ضد الفلسفة بمد تلك التي كانوا قد اتفقوها اذ حكموا على سقراط بالاعدام . فلم مدرسته الى تليذه تيوفراستوس واعتزل في مدينة كاليبس من جزيرة اوي ، وهناك مات سنة ٣٢٢ وله من العمر ٦٢ سنة .

بدأ ارسطو بتأليف منذ اتصاله بهرمياس ، وما زال يؤلف اثناء مراحل حياته المختلفة حتى مفادته الاخيرة لاثينا . الا ان هذه المؤلفات لم يصل اليها منها ، كما قلت ، الا ما يت الى تعليمه للاخواس في مدرسة اثينا . وهناك الكتب ، على ما هي ايزوم ، موسوعة مذهب كامل يتناول كل المعلومات ، وهو مذهب بسيط بنسب منطقي يتفق تقريباً ، فيما يظهر ، ومراحل تأليف الكتب المختلفة فيه . اما تلك المؤلفات ، فيمكن ان توزع حسب المراتب الكبرى التي تكون في نظر ارسطو مجموعة العلوم : تتدى بالعلوم التي غرضها تصرف العقل من حيث انه يتيج ويوجد مستداً من مواد سابقة ، مثل فن الشعر وفن الخطابة وفن المنطق ، ثم تنتقل الى العلوم العملية التي غرضها تصرفات الانسان في شتى وجوهاً بتمتضي الانجازات الثلاثة الكبرى اعني الاخلاقيات والسياسات والاقتصاديات ، واخيراً تنتهي بالعلوم العقلية النظرية اعني اسمى العلوم درجة في التجرد النظري ، فتشمل الرياضيات والطبييات والنظريات المتعلقة با ورا . الطبيعة التي يكلها العلم الاوسع والاغلى اي العلم بالله .

شرع ارسطو بدرس الصرد الذهنية الصرفة المجردة من كل جسم ومادة ،  
ولكنه سرعان ما اخذ يهتم بالعلوم المتعلقة بالطبيعة والانسان . فكان لا يقفنا  
يسعى في ان يتقرب من الواقع الطبيعي ويدخله في اطارات العلم : فن ثم عنده  
الاهتمام البالغ المتزايد مع الزمن بمشاكل الجواز والامكان والظواهر الحسية ،  
ومن ثم عنده ايضاً ذلك الشعور القوي بالدور المهم الذي يقوم به في العلم الادراك  
العمومي ، سواء اكان حياً ام عقلياً : فانه عن ذلك الادراك تصدر التأليفات  
الجزئية الحية في المعرفة ، تلك التأليفات التي تسبق التحليل وتشرف عليه  
لتسديد توجيهه .

فان ذلك الانتكباب المستمر على الواقع الطبيعي لتحليله وسبر غوره ، هو  
الطابع الخاص الذي يمتاز به عبقرية ارسطو . وذلك الحرص ، او ان شئت  
فقل ذلك النهم والشه في معرفة الطبيعة وحصرها بحكاملها ، حتى في ادق  
اجزائها ، لا يمكن تحليله الا باعتقاد قوي عند فيلسوفنا بامكانية فهم لواقع  
الوجودي وضبطه للعقل . فان ارسطو لم يكن من اليقنين المتطرفين فهو من  
الذين يمتدرون بامكان اليقين بمد تحديد شروطه بجذر وامعان ، وهو اذ  
يشرف على تحديد شروط العلم والمعرفة ، لا يتساءل فيما عسى اذا كانا ممكنين ،  
بل في كيف التيسر الى الوصول اليها والى تحقيقها عند المدرك العالم . فيبدو  
انتاجه الفكري من هذا التيسر كاتساق ، واصل اليها عند اليونان ، ذلك  
المجهود الفلسفي الذي يتبدى مع سترات ، ويتطور منه افلاطون حتى ينتهي  
اليه فيدو على وجه الاتم .

واخت هو ان ذلك المجهود لا يند وان يرد في اصله ونشأته الى المفكرين  
اليونانيين والفيثاغوريين والابولياتيين مع امبدوكلينس وديوكريتوس واناكساغوروس ،  
وهم جميعهم من عهد المعجزة اليونانية ، اعني الجيل السادس ق . م . كل هؤلاء  
كانوا يقينيين اقحاحاً لا شك عندهم في امكان العقل الشري معرفة الواقع  
الوجودي ، فالف كل مذهبه يدافع عنه بالرغم مما يجد فيه من المناقضات اذهب  
غيره . فجااء حينئذ دور الفسطائين واللاداريين وفي مقدمتهم بروتاغوروس  
وغورجياس ، وما كان لهم مذهب خاص سوى الطمن في امكان المعرفة باظهار  
المناقضات في مذاهب الذين سبقوهم من اليقنين .

ثم اتى سقراط فوضع للبحث الفلسفي اساسه اذ قال ان المعرفة الحقيقية غرضها الصور الذهنية المجردة المشتركة بين الموجودات الجزئية مادية كانت ام روحية . ولكن هذا لا يكفي : فاذا كانت المعرفة ادراك الصور الذهنية فذلك يؤدي الى اليقين الذاتي الذي يطعن اليه العقل العالم ، ولكن هل الاشياء ، في حدود ذواتها ، هي بالضبط والواقع كما تبدو لنا في صورتنا الذهنية ؟

الفضل في الجواب على هذا السؤال راجع الى افلاطون ، تلميذ سقراط . فعنده ، كما نعلم ، ان صورتنا الذهنية ان هي الا انعكاسات فينا للصور العليا المثالية التي عنها يصدر الوجود والواقع الوجودي بكامله . ثم ان الصور الذهنية تلك موجودة فينا بالقطرة ، نكتشفها عندنا بمجرد مباشر ليس نتيجة عمل التجربة (وبذلك يتاز ارسطو عنه) بل هو - ذاك الحدس - الحد الاخير لاستبطان به نعود الى انفسنا فنذكر الواقع الوجودي الذي تنكس فينا صورته . ومن ثم نظرية التذكر او الذكرى عند افلاطون ، وهي نظرية بها يعلل كيفية حصولنا على تلك الصور الذهنية التي تعتبر في الآن نفسه تاذج الواقع الوجودي الرضوي وامثلة له .

واذن فان سقراط يقول : المعرفة الحقيقية غرضها الصور الذهنية ، فينبه افلاطون ويقول : وهذا يعني ان الصورة الذهنية توافق الواقع الوجودي الرضوي وتثله لنا كما هو .

وعلى هذه الحطة يسير ارسطو تلميذ افلاطون . مبدؤه هو ان غرض المعرفة الصور الذهنية المجردة ، وهي التي شرع بسببها ان افضل على عالم الثلاثة . ثم ان هذه المعرفة يقينية فيما يختص بالمعلومات العامة والكليات ، وعنده لا وجود لها الا في الجزئيات المادية وبذلك الجزئيات . فهي في الواقع الحسي ونحن نستخرجها عن طريق الاستقراء . هذا وان معرفة الامم الكلي ، اذا صح استقراؤها له ، تمكننا من استنتاج الشيء الجزئي الفرد . واذن فالعلم برهاني اعني انه قائم على البرهان الذي هو مقياس اليقين في نهاية الامر . ولكن هل يكون البرهان ابداً ودوماً ضرورياً ؟ هو قياس متركز على مقدمات مقرة ثابتة ، لا بد وان تكون في نهاية الامر غنية عن البرهان ، اذ ترجع بها ، بملقات متتالية ، الى ادراك مبادئ العقل الاولى واساسها مبدأ التناقض .

وميزة هذه المبادئ هي انها لا تتطلب البرهان لانها غنية عنه . فهي تعرف  
بيقين اقوى من اليقين المتعلق بالمعلومات المستتجة : هي منبع اليقين ومصدرها ،  
والاستنتاج ليس الا الوساطة التي نصل بها الى ذلك اليقين ، ثم ان الملكة التي تدرك  
تلك المبادئ هي العقل وهو في نظر ارسطو معصوم بحد ذاته عن الخطأ .

وليس غرضي هنا ان ادخل في المناقشات التي دارت حول علاقات ارسطو  
بافلاطون : كيف فهم الاول مذهب استاذه وكيف وافقه عليه من ناحية  
اخرى . انما مقصودي ان اظهر كيف يبدو ارسطاطاليس كالتقطة النهائية  
للمجهود الفكري اليوناني ، وهو مجرود فلسفي محض اعني انه قائم على الاعتماد  
على مجرد العقل وقواه . وان مذهبه ، اذا صرفنا النظر عن بعض ما اشتل  
عليه من المعلومات الشرعية والدينية والاجتماعية والطبيعية والبيولوجية ، ان هذا  
المذهب اقول ، يبدو كجهاز عظيم واضح الخطوط والمالم وهي اشد الخطوط  
والمالم الموافقة للعقل البشري فيما يختص بعلم ما وراء الطبيعة . بما يمكننا من  
ان نمد ارسطو الاستاذ الاول في ضرب من التفكير يمكن ان نعتبره الفلسفة  
نفسها بهتمام منهاها اعني ذلك التوجيه الفكري الذي يتقدم ويتطور ممتداً ابد  
ودوماً على مجرد العقل وقواه بصرف النظر عن كل غرض وغاية سواء اكان  
من حيث الدين او من حيث الاخلاق .

ولا يسمننا ان نردد نفس القول فيما يختص بالتزالي ، بالرغم من انه يبدو  
لنا متأثراً كل التأثر بفلسفة ارسطو ، لا سيما فيما خلف لنا من اراء في صدد  
المعرفة والعلم .

وجيئنا يعلم اطوار حياة التزالي : ولادته في طرس ، درسه الفقه في بلدته  
اولاً ثم في جرجان ، ثم قصده امام الحرمين ابا العلاء الجويني في نيشابور ليأخذ  
عنه الفقه وغيره من العلوم الدينية الاسلامية كالحلوف والجدل والاجلين والمنطق ،  
ثم اتصاه بنظام الملك بعد موت استاذه . ونعلم ايضاً ان نظام الملك ذلك  
ولاه التدريس في نظامية بغداد وهي اشهر النظاميات تلك التي كان الوزير  
السلجوقي قد اسما تسمية لشر الفقه الشافعي ، يعي من ورائه الى هدم  
نفوذ الفاطميين الذين كانوا يملكون على مد سيطرتهم تحت رداء المذهب الشيعي ،  
متمدين في ذلك على اتصار لهم كانوا يعرفون ، في عصر التزالي ، بالباطنية

او التلمية . ولا نجمل ما كان للقرابي من شهرة ، اتنا . تدرسه في بغداد ، ثم ما حدث له فيما بعد : ابتاده عن التعليم ، مفادته لبغداد بعد ان كان قد استناب اعاه في التدريس ، تلك الغزلة التي التزمها التراماً وغطى عليها بالصمت العميق فما كشف لنا منها الا عن ذهابه الى دمشق مستقراً ، ثم الى القدس ثم الى الحرمين ثم رجوعه الى بغداد واخيراً استقراره في طوس ببلده . ويزاح الستار بعد ذلك في سنة ١٢٩٩ / ١٢٠٦ ، فترى القرابي راجعاً الى التدريس في نظامية نيشاور تلبية لطلب سلطان الزمان ، ولكنه لا يلبث ان يعود الى الغزلة فيلتزمها حتى مماته في طوس ايضاً سنة ١١١١ / ٥٠٥ .

اما توجيهه الفكري فيمكننا ان نطلع عليه من وراء درسا لمؤلفاته . له في الفقه ثلاثة كتب البسيط والوسيط والمختصر ، وفي اصول الفقه تهذيب الاصول والمنقول والمستصفي . الا انه لم يشتهر بهذه الكتب مثلما اشتهر بتلك التي صنفها في علم طريق الاخرة او ايضاً في العلوم الاخرية على حد قوله . وهذه المؤلفات الاخيرة ، نستطيع ان نوزعها على المراحل الاتية .  
- الكتب التي لم يتناول فيها العلوم الاخرية مباشرة انا وضعها تحت ضوء مبادئ تلك العلوم ومستلزماتها .

- وبلي هذه المصنفات تلك التي كان غرضها المباشر علم طريق الاخرة نجد ذاته وفي مقدمتها كتاب احياء علوم الدين . فيه تتعلق وحوله تدور المصنفات الاخرى في الموضوع .

- وتأتي اخيراً المؤلفات التي وضعها شرحاً لفكرته على اختلاف وجوه التعبير عنها مثل فصل التفرقة بين الاسلام والزندقة والجام العوام عن علم الكلام والمنفذ من الضلال . هذا مع العلم باننا احتفظنا هنا بالمؤلفات التي اجمع العلماء على نسبتها اليه وهي التذر اليسير من الشيء . الكثير .

اما العلوم الاخرية - تلك التي وقف القرابي عليها كل كسبه ، ما عدا تلك التي القها في الفقه ولم يعتبرها هو نفسه من الاهمية بكان - اما العلوم الاخرية اقول ، فاهي الا العقائد الدينية الاسلامية المتبناة من محمد النبي على ما كانت مقبولة عند اهل السنة . وغرض القرابي من مؤلفاته هو اثبات اليقين من تلك التعاليم وتمهيد الطريق لذلك اليقين الى نفوس قرانه وسامعيه . والكتاب

الذي يظلمنا بجلاء . ووضح على اتجاه الغزالي التفكيرى هذا ، هو المنفذ من الضلال . ففي هذا المصنف يتناول مفكرنا مشكلة اليقين الدينى فيستعرض المحاولات التى سمى بها علماء الاسلام قبله تأمين ذلك اليقين ، وهى الفلسفة والكلام ومذهب التلميم والتصرف الذى يراه الغزالي الطريق الوحيد لتبيل الفرض المقصود دون الطرق الثلاثة الاولى .

كان التلميم الدينى الاسلامى ، فى اول امره ، يلقى بشكل مجموعات من العقائد اسم كل منها فقه . فهناك الفقه الاكبر الاول والثانى وما يشاكلها كوصية ابي حنيفة وعقيدة الاشعري . ثم حدث الاتصال بالتفكير اليونانى عن سبل الترجمات عن اللغات المنتشرة آنذاك فى المملكة الاسلامية ولاسيما السريانية والسبئية ، فحاول علماء الاسلام التوفيق بين عقائدهم وبين ما كان يراه الناس من مقتضيات العقل ومستلزماته . فكانت محارلة الفلاسفة الاسلاميين ثم محاولة المعبرلة ، ثم محاولة الماتريدي والاشعري التى تبعا فى خطوطها العامة المتكلمون النيون فيما بعد ، واشهرهم الباقلاني والجويني : فالاول استاذ الثانى ، وعن هذا الثانى اخذ الغزالي ، كما نعلم .

وكان الجويني قد سبق وابدى تردده فى امكانية الكلام من تأمين اليقين الدينى ، فهو قائم على المنطق وادائه وهذه الادلة متكافئة لا تقوى على فرض عقيدة دون تلك التى تنقضها . وهذا هو رأي الغزالي ايضا . فالكلام مستند على مقدمات تلمبا اصحابيا من خصومهم ، واضطرهم الى تسليمها اما التقليد او اجماع الامة او مجرد القبول من القرآن والاحبار . وهذا قليل النفع فى جنب من لا يعلم سوى الضروريات شيئا اصلا<sup>(١)</sup> . ومع ذلك فالكلام ، لم يكن ليؤمن اليقين ، فهو مقبول متسامح به لانه لا يخالف عقيدة اهل السنة . وما الاسر كذلك فيما يختص بالفلسفة لان الفلاسفة اوغلوا فى تأويل تلك العقيدم وخالفوها فى تعاليمها ولاسيما المهمة منها كقيامه الاجساد وعلم الله بالكليات والحزليات معا وخلق العالم<sup>(٢)</sup> .

(١) المنفذ من الضلال ، طبعة دمشق ١٩٥٦ ، ص ٦٧

(٢) انظر *Année, Notion de Certitude selon Ghuzali, Paris, Vrin, 1958*

ص ٥٢ تا ١١٥-١١٦

الا ان الغزالي الذي ينكر هكذا اسس المعرفة كما وصلت الى السنين  
عن ارسطو ، والذي يذهب الى تكافؤ الادلة ، ان للغزالي اقول مؤلفات في  
المنطق واصوله واساليه وهو يظهر في تلك المؤلفات متقيداً بطرق ارسطو  
نفسه واساليه .

قلنا : يظهر ذلك لان الغزالي ، كما سنرى فيما يلي ، ينتظر في هذه المؤلفات  
الى المنطق لا من ناحية المادة اعني المعلومات المستمدة من الواقع الوجودي ،  
ولكن من مجرد ناحية الصورة اعني ناحية ترتيب القضايا والصور الذهنية في  
مقدمات تنظم في اقيسة تستخدم لا للبرهان والاثبات الحق بل لمرض تعليم  
مفروض بشكل مرتب منسلس منطقي . اما السبب التاريخي الذي دفع  
الغزالي الى ان يخصص للمنطق كتاباً اربعة من مؤلفاته - الميار ، المحك ،  
القطاس ، المدخل إلى المتصفي - فيمكننا ان نستجبه من درس اول كتابه  
في ما يسميه المعتقدات - وهو اسم آخر عنده للعلوم الاخرية - وهذا الكتاب  
هو المتظهوري .

في هذا المصنف يعرض الغزالي لفكرته الاساسية ملخصة موجزة ، فيتيح  
لنا ان نتبين كيف يعمد اليها فيما بعد ليعرضها منبسطة مع كل تطوراتها في  
مؤلفاته الاخرى . والمتظهوري ذلك كسبه الغزالي للرد على الباطنية وهم  
يعمدون في عملهم الذي اشرت اليه سابقاً الى طرق سياسية وطرق عقائدية .  
اما الطرق السياسية فكان الغزالي قد قاومها فيما سبق مع نظام الملك عدو  
الباطنية الالذ ، بتدريس الفقه السني . ثم عدل عنها بعد مقتل نظام الملك عن  
بن باطني ، الى الطرق العقائدية . وعقائد الباطنية متخذة من مؤلفات الفلاسفة  
وهي مقشبة النزاحي متعددة الوجوه : فيها المنطقيات ، وفيها الطبييات ، وفيها  
المعلومات المختصة بالنفس وفيها اخيراً العقليات المتعلقة با وراة الطبيعة  
واساليب معرفتها .

والغزالي يعرض لكل ذلك في كتابه المتظهوري ويفنده ، مبيناً رأيه فيه  
بصورة مختصرة قبل ان يتوسع بذلك الرأي في مؤلفاته الاخرى . اما من جهة  
المنطقيات فيعود اليها ويصنف فيها كسبه في المنطق فيعرض له بشكل موافق  
للعقيدة السنية . واما في النزاحي الاخرى فنها ما لا تقبله تلك العقيدة فيرجع

اليه ايضاً ويفنده في «تهانت الفلاسفة» ، ومنها ما يتماشى وتلك العقيدة فيسود اليه ايضاً في كتبه المتعلقة بالتصرف وعلم طريق الآخرة ويستخدمه بعد ان فرغ صورته واصطلاحاته من معناها الاصلي الشيعي الباطني واولها على معنى العقيدة السنية ومقتضياتها . وفعل ذلك تسيلاً لعله وتمييداً لعقيدة السنة واليقين منها في الاوساط الشيعية او المتشورة التي كانت قد تأثرت بتعليم الباطنيين التلميين .

كل هذا الذي اسلفنا وذكرناه يدلنا على اننا لا يمكننا ان نقبل على درس التزالي من اية ناحية اعتبرناه الا مع العلم بانه عالم ديني قبل كل شيء ، مقيد بعقيدة بمتقضاها يفكر وعلى ضوئها يسير . ليس شأنه شأن ارسطو الذي يستطيع ان يطلق لعقله العنان ويتصرف به بحسب مجرى ما يدلله عليه ذلك العقل ، فيقبل على درس الطبيعة وما ورائها بتجرر فكري تام . فان التزالي ، حتى في الدواحي التي تمت الى الفلسفة والتي يلتقي بها مع ارسطو ، لا يتكلم ولا يتصرف كفيلسوف بتمام معنى الكلمة ، ولا يعرض لموضوع فلسفي بالمعنى الذي نهبه اليوم . وهذه ملاحظة لا بد من ان نذكرها ابداً ودوماً قبل ان ندخل في المقارنات التي الفناها ، اذا ما شئنا ان تكون تلك المقارنات مفيدة منتجة .

وهناك ملاحظة ثانية وهي ان التزالي يتناول ، نعم ، في مؤلفاته في المعرفة والشائقي ، مواداً يبدو فيها متشرباً بتفكير اليوناني بتوع عام وبأرسطو بنوع خاص . غير انه يفكر ويكتب بلغة عربية خالصة لها عبقريتها الخاصة التي تميزها عن سواننا من اللغات ولا سيما عن اللغة اليونانية . فهو عندما يستخدم الفاظه ، يحس بها احساساً قوياً كما ما تشحن تلك الالفاظ من المعاني والدور ولكل ما يكتشفها من ادواء واصداء في اعماق نفسه . ويريد في ذلك ان تفكيكه مشبع بتلك التعاليم الاسلامية الموروثة وتلك الاحاديث العربية التي يرجع عهدا الى اول نشأة اللغة العربية كلغة كتابة وادب . ونحن نعرف ان قالب تلك اللغة جد بعيد عن لهذا الذي نعرفه لها اليوم ، فكيف بالحري اذا ما قارنا ما وصل الينا فيما بنا وصل الينا باللغة اليونانية وانتاجها الفكري وهو منبع كل ما احدث من اداب وفنون في اللغات الاجنبية اليوم . نعم قد يكون هذا الحقد من الفضول فيما يختص ببعض فلاسفة الاسلام - وفي الامر نظر -

اما فيما يختص بالفزالي فالاشارة اليه امر ضروري لا بد منه . فرب معنى عند ارسطر نقل الى العربية وسبك في لفظة منها فبقي على ما هو عند ابن سينا وابن رشد ، اثار في نفس الفزالي العالم الاسلامي العربي ، الواناً من المعاني لا عهد للفيلسوف اليوناني بها .

وبعد فاني اري اننا ، اذا ما سرنا على ضرة هاتين الملاحظتين ، قد توفقت الى شيء واضح ، ولو قليلا كان ، في درس ما يميز العقلية العربية عن العقلية الشرقية ، وذلك ليس بالاسترسال في الكلام العام المجمل ولكن بالتعليل الرضمي المتواضع لشخصيتين فذتين تمد كل منهما نموذجاً حياً للتيارين الفكريين وللحضارتين اللتين يتلانهما . هذا علاوة عما توفقت اليه من البحث الصحيح في ما سوف نعرض له من فصول تتصل بمشكلة المفارقة بين ارسطر والفزالي .

